

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

— ١ —

هل الفلسفة الاغريقية وليدة الفلسفة الشرقية ؟

تمهيد

تشغل الباحثين منذ أقدم عصور التاريخ مشكلة لم يهتدوا إلى حلها حتى اليوم حلا حاسما يقف تيار الاعتراضات من الجهات المعارضة، وإن كانت بحوث المستشرقين والمستعصرين في العصر الحديث قد وصلت إلى ترجيح إحدى كفتي الميزان في هذه الفكرة العويصة التي يترتب عليها تغيير اتجاه الحكم على اليونان وعلى الشعوب الشرقية القديمة إلى ناحية غير التي كان يسير فيها قبل ظهور نتائج هذه البحوث. تلك المشكلة هي: هل الفلسفة اليونانية ابتدعت في يونان وليس لها أية صلة بالشعوب الشرقية؟ أو هي تراث نظمه الاغريق؟ وإذا كانت الأولى، فهل يرجع مبدؤها إلى القرن السادس فقط كما زعم أرسطو، حين قرر أن «تاليس» هو أول الفلاسفة جميعا؟ أو يمكن إصعاد الفلسفة إلى عصور غابرة إغريقية محضة؟ وإذا كانت الثانية، فما هو أول تلك الشعوب الشرقية الذي نشأت الفلسفة بين ربوعه؟

قرر أرسطو أن الفلسفة نشأت للمرة الأولى في تاريخ العقلية البشرية في تلك المستعمرة اليونانية التي تدعى «أيونيا» والتي سبق أن أسسها قوم من الاغريق القدماء الذين هاجروا في عصور ما قبل التاريخ إلى آسيا الصغرى وأسسوا بها تلك المدن التي لم يلبث الاغريق الاصيلون أن احتلوها وبسطوا عليها سلطانهم السياسي والأدبي، فافسحوا بذلك الطريق أمام العقل الاغريقي الجبار، وحلوا عقاله الذي كان قد أمسكه في آسيا عن الصولان في عصور ما قبل الاستعمار الجديد. وأول من بدأت العقلية الاغريقية القديمة تتمثل فيه هو: «تاليس»

٤٢

المليتي، أول فيلسوف في الدنيا. وإذا، فالفلسفة إغريقية الأصل والعنصر، وهي لاتصعد في رأى أرسطو إلى ماوراء القرن السادس قبل المسيح، ولكن «ديوجين لايرس» المؤرخ الاغريقي الشهير الذي عاش في القرن الثالث قبل المسيح يحدثنا في كتابه «حياة الفلاسفة»، عن فلسفة المصريين والفرس في العصور الغابرة حديثا تمتعا يدل دلالة قاطعة على أن الشرق قد سبق الغرب إلى الفلسفة بزمن بعيد. وأنه كان أستاذه في كل ماوراء الطبيعة كما كان أستاذه في العلوم الطبيعية والرياضية بأنواعها، وأن الغرب جلس في الازمان المظلمة مجلس التليذ المستلهم من الشرق العالم المستنير.

فأنت ترى تعارض هاتين الفكرتين وتصادمهما منذ أكثر من ثلاثة وعشرين قرنا، وترى كذلك أن لكل منهما أشياعا ومؤيدين، ففريق يسلك منهج أرسطو فيؤكد أنه ليس للشرقيين فضل في هذه الثروة العقلية العظيمة إلا ما ظير لفلاسفتهم بعد الاسلام من مجهودات في شرح الفلسفة اليونانية وتوجيهها؛ أما في العصور الاثرية فلم يعرف التاريخ عنهم إلا الدين المقيد بالوحى ولم يحفظ لنا عنهم مجهودات شخصية تشرف العقلية البشرية، بل إنهم نسبوا كل شيء عندهم إلى السماء، حتى تلك المتناثرات الاخلاقية المنزعة من الفضائل العملية والمصوغة في حكم مقتضبة، ويتخذون دليلا على هذا ما تزدهم به كتب التاريخ من إزهار الدين وإجذاب الفلسفة في الشرق كل هذا الوقت الطويل الذي تلا العصور الاثرية، ويقولون: إنه لو كان للشرق فلسفة لشملها ناموس التقدم ولشاهد العالم تطوراتها المختلفة كما حدث في بلاد الاغريق. ومن أشهر أصحاب هذا الرأى في العصور الاخيرة «بار تلى سانت - هليز»، إذ يقول في مقدمة ترجمته «للكون والفساد، مانصه: «أما من جهة الفلسفة الشرقية فانتا لانعرف، بل ربما لن نعرف أبدا من أمرها شيئا معينا بالضبط فيما يختص بعصورها الرئيسية وانقلاباتها، فان أزمته وأمكتها وأهلها تكاد تعزب عنا على سواء. إنها مستعصمة دون إدراكنا مدعاة للشكوك لما يغشاها من كثيف الظلمات، حتى لو عرفنا منها هذه التفاصيل مع الضبط الكافي لما أفادنا ذلك إلا من جهة إرضاء رغبتنا في الاطلاع دون أن يتصل بنا أمرها

قد افازت باسمها ولم تكن الأرض هي الأخرى قد سمت بهذا الاسم كان أبوهما : دأبسو ، وأمهما : تياما ، وهما : الماء ، أو جوهر كل شيء متمزجين امتزاجاً تاماً قصد التناسل والإخصاب ، (١) .

فاذا لاحظنا أن الانشودة العراقية كانت قبل ، تاليس ، بعهد بعيد ، وأن سيادتها في القرن السادس قبل المسيح كانت على أتم ما تكون قوة وتغلغلا في النفوس ، ولأحظنا الصلات التجارية والاجتماعية في ذلك العصر بين العراق وأيونيا استطعنا أن نرجح في سهولة كفة تأثير تاليس بتلك الانشودة العراقية القديمة ، بل استطعنا أن نجزم بأن من المستحيل أن يكون تاليس قد ابتدع نظريته في أصل الكون .

٢ — إن العلماء المشتغلين بالبحث في الإنسان وخواصه والفروق الموجودة بين طوائفه المختلفة قد قرروا أنهم التقوا أثناء بحوثهم بأدلة قاطعة على أن بعض النظريات الاغريقية لا يمكن أن تكون من أصل إغريق ، لأنها توفرت فيها جميع شرائط العقلية الشرقية وخواصها .

٣ — إن الباحثين الأثريين قد عثروا على كلمات : العدالة والفضيلة والنفس والحياة الأخرى في الشرق قبل مبدأ تاريخ وجودها في الغرب بقرون لا يعرف مداها ، بل إنهم قد تأكدوا من أن الغرب لم ينطق بهذه الكلمات إلا بعد اختلاطه بالشرق .

٤ — إن علماء الرياضة قد فرغوا من تقرير أنه من غير الممكن أن تبنى الأهرام في بلد لم تقطع فيه الهندسة العلمية أسواطاً بعيدة .

وفي هذا رد بليغ على الذين يزعمون أن مصر لم يكن فيها هندسة علمية ، وإنما كان فيها هندسة عملية خسب (٢) .

٥ — هناك أدلة أخرى لم تصل من القوة العلمية إلى ما وصلت إليه الأدلة السابقة ، وإن كان أنصار هذا الرأي يستأنسون بها مثل رحلة تاليس إلى مصر والشرق الأقصى ، ومثل وجود العناصر الأولى من منطق أرسطو في المدارس الهندية السابقة

كثيراً . إن الفلسفة الشرقية لم تؤثر في فلسفتنا مع التسليم بأنها تقدمتها في الهند وفي الصين وفي فارس وفي مصر فأننا لم نستعز منها كثيراً ولا قليلاً . فليس علينا أن نصعد إليها ، لنعرف من نحن ومن أين جئنا (٣) .

ولقد تصديت فوق ذلك لتبيين أن العبقريّة الاغريقية هي التي دانت العالم بهذا النفع العلمي الجليل دون أن تكون مدينة فيه لغيرها ، فإذا كانت الشعوب المجاورة لها آتتها شيئاً من العلم فما هو إلا مدد مبهم غاية في الإبهام . لا مراء في أن المصريين والكلدان والهنود لهم في ماضي الإنسانية مقام كبير ، ولكنهم مع ذلك في الفلسفة أو في العلم بعبارة أعم ليسوا شيئاً مذكوراً في جانب الاغريق الذين لم يكونوا ليتعلموا منهم (٤) .

وقال أيضاً : « وإن العلم على جميع صورته كان معدوماً في الشرق فاخترعه الاغريق ونقلوه إلينا ، (٥) » .

ولهذا الرأي مقلدون (٦) في مصر كما هي الحال في كل فكرة تطعن على الشرق .

وفريق آخر يذهب إلى ما نقله د لارس ، من أن الفلسفة الاغريقية ليست إلا تراثاً شرقياً متغلغلا في القدم ويستندون في هذا إلى براهين أهمها ما يأتي :

١ — إن جهود المستشرقين قد وضعت أمام أنظار نامدنيات شرقية ضاربة في التقدم بسهم نفاذ كمدنيقي مصر والعراق مثلاً ، وأنبأتنا بأن هذه المدينيات سابقة على مدينة الاغريق بعدة قرون ، وأثبتت لنا علائق متينة بين بعض ما تحتويه هذه المدينيات وبين الفلسفة الاغريقية مثل علاقة نظرية د تاليس ، الشهيرة القائلة بأن أصل الكون هو الماء بالانشودة خلق الكون الدينية العراقية التي تصرح بأن كل شيء في الكون منشؤه الماء إذ تقول في مطلعها ما ترجمته : « حين لم تكن السماء العليا بعد

(١) راجع مقدمة كتاب الكون والفساد لارسطو ترجمة الاستاذ اخذ المظى السيد باشا صفحة ٢

(٢) انظر صفحة ١٠٤ من مقدمة كتاب الكون والفساد لارسطو

(٣) انظر صفحة ١٠٦ من هذه المقدمة

(٤) انظر قادة الفكر للدكتور طه حسين بك

(١) انظر صفحة ٣ من مقدمة الجزء الاول من كتاب د برييه .

(٢) انظر قادة الفكر للدكتور طه

(د) « أصول الديانة الاسرائيلية » : « الجيوفية القديمة »
تأليف د. س. كوسان ، ظهر في ١٩٣١
(هـ) « تاريخ الفلسفة الصينية » تأليف د. زانكير ، ظهر
في سنة ١٩٣٣

على أن هاتين العقبين المتقدمتين لا تمنعنا من أن نعتبر
دراسة الفلسفة الشرقية هي أول ما يجب على المشتغل بدراسة
الفلسفة الاعتناء به ، أما امتزاج الفلسفة بالدين الذي كان من
عوامل حروجه دارس موقف الفلسفة الشرقية فسنجهد في
حله بأن نعين مهمة كل من هذين الممتزجين اللذين عقد
امتزاجهما الموقف وجعله من المشاكل العويصة

ولكن قبل أن نعالج هذا الموضوع ينبغي لنا أن نشير إلى
أن تلك العقبة الأولى الناشئة عن امتزاج الفلسفة الشرقية بالدين
ليس مسلماً بها من جميع العلماء والباحثين المحدثين ، إذ يصرح
بعضهم بأن هذا الامتزاج ليس خاصاً بالشرقيين في العصور
القديمة ، وإنما هو طبيعة إنسانية عامة كما وجدت في مصر
والعراق في الأزمان الغابرة ، كما وجدت كذلك في أوروبا في
القرون الوسطى . وليس القديس « أوجستين » والقديس
« توماس » والقديس « أنسلم » — وهم مشاهير فلاسفة
المسيحيين في أوروبا — إلا مظاهر لهذه الفترة البشرية التي
نشأت على مزج الدين بالفلسفة ، بل إن « ديكارت » ،
و « اسبنوزا » ، و « كانت » ، أنفسهم — وهم اعلام فلاسفة
العصر الحديث — ليسوا إلا مظهر آخر من مظاهر هذا
الانعطاف الطبيعي . وإذا ، فرمى الشرق القديم وحده بهذه
النقيصة — إن صح أنها نقيصة — ضرب من العنت والجور
اللذين يجب أن يتزه عنهما الباحث المحاييد

وسواء أصح الرأي الأول أم الثاني ، فإننا سنحاول هنا
أن ندرس الفلسفة الشرقية الممتزجة بديانات الشعوب التي
ظهرت فيها ، عاملين — كما قدمنا — على تمييز الفلسفة من
العقيدة ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً .

وسنبداً دراستنا بأقدم هذه الديانات الوثنية عهداً ، وهي
الديانة المصرية التي لم يعرف التاريخ أعرق منها في أغوار
الماضي البعيد .

الدكتور محمد قطب

(بنج)

لعصره ، ومثل وجود الكلام عن الجوهر الفرد في المدارس
الهندية كذلك أو وجود فكرة التناسخ عند المصريين والهنود
وغير ذلك من يسند هذا الرأي الأخير ويقويه .

إذا عرفنا كل هذا وتبيننا أن هذه الفلسفة اليونانية العظيمة
إنما هي وليدة الاساطير الشرقية ، فقد وجب على كل باحث
في الفلسفة أن يبدأ بحوثة بفلسفة هذه الشعوب الشرقية ،
ليكون على بينة من العناصر الأساسية التي تكون منها الجسم
المراد درسه

غير أن هناك عقبات ومصاعب اعترضت ولا تزال
تعترض سبيل دارس الفلسفة الشرقية وتفقههم موقف الحروجه
والعصر مثل :

١ — ما يزعجه بعض المتحاملين من المحدثين من أن فكرة
بدء الخلق في الشرق تستمد عناصرها من الدين أكثر مما
تستمدها من الفلسفة ؛ وإن شئت فقل : إن الدين والفلسفة
في الشرق شيء واحد ، ولهذا لم يعرف للتاريخ نظرية فلسفية
ظهرت في الشرق القديم مستقلة عن الدين ، وإنما مهد
النظريات الحرة البعيدة عن كل التأثيرات الدينية من غير استثناء
هو بلاد الإغريق . وهذا هو الباعث الأول الذي قلل من
أهمية دراسة الفلسفة الشرقية في نظر علماء العصور الحديثة
وحط من قيمتها عندهم

٢ — إن المصادر التي وصلت إلينا عن فلسفة تلك الشعوب
الشرقية قليلة لا تكفي لإشباع الرغبة العلمية عند الدارس
المتقصى الذي لا يرضى من المشكلة بأقل من الاحاطة بجميع
نواحيها ، وإن كانت هذه الندرة في المراجع لم تحمل بين الباحثين
المحدثين وبين معالجة هذه الفلسفة الشرقية ووضع المؤلفات
الضخمة عنها مثل كتب :

(أ) « هيكل تاريخ الفلسفة الهندية » تأليف « ماسون
أورسيل » ، وقد ظهر في سنة ١٩٢٣

(ب) « تاريخ فكرة وحدة الوجود الهندية » تأليف
« أولترا مار » ، ظهر في سنة ١٩٢٣

(ج) « تاريخ الديانات » تأليف « دينيس سورا » ، ظهر
في سنة ١٩٢٤